الخاتمَـــــة

لن نعيش ذمّييّــن...

بعد هذا العرض الموضوعي للقضايا والأحداث التي ذكرناها، وقد دعّمناها بالمستندات الثقة، نقول: ما الغرض الذي نرمي اليه؟

الجواب بسيط جدا، ولكنه غنيّ في أبعاده الانسانية: لا نريد أن نكون ذمّيّين.

هدفنا أن نبقى أحرارا ومواطنين كاملي المواطنية. وهذا ما نطلبه لكل مواطن، بصرف النظر عن أي فارق في اللغة أو الأصل أو الدين أو المذهب أو المعتقد السياسي.

وما رأيناه في هذه الصفحات هو أن الإسلام لا يقبل له ندّا على الصعيد الاجتماعي – السياسي – القانوني، وأن المسلمين لا يقبلون أن يساويهم أحد. "وكنتم خير أمّة أخرجت للناس" (آل عمران 110).

وما دام المسلمون يؤمنون بأنه "لن تجد لسُنّة الله تبديلا ولن تجد لسُنّة الله تحويلا" (فاطر 43)، وبأنه "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم..." (الأحزاب 36)، فإنما تعليلا بالسراب يكون قول القائلين بأن "نَصْبِرَ" بانتظار ذلك اليوم الذي يقبل فيه المسلمون مبدأ المساواة التامة بين جميع المواطنين، مسلمين وغير مسلمين.

في رأي هؤلاء الناس أن التغيير الجذري في نفوس المسلمين سيتمّ حتما وحكما على الرغم من أحكام القرآن الصريحة، وعلى الرغم من المساعي الفاشلة حتى الآن على هذا الصعيد. ويستشهد هؤلاء الناس بتاريخ التطور الانساني. ففي يقينهم أن منطق تطور الحياة هو الأقوى. وهو سائر في خط الحرية والمساواة مهما طال الزمن ومهما أصيب بنكسات. ولا بدّ من أن يفرض هذا المنطق اجتهادات وتفسيرات جديدة كل الجدّة على النصوص القرآنية.

أما جوابنا على الناصحين بالصبر فهو أن ثمن الاتكال على هكذا افتراض قد يكون فادحا جدا. ولسنا نعلم هل سيبقى مسيحيون في العالم الإسلامي حتى مجيء اليوم الموعود. صحيح ان المجتمعات البشرية مرّت بتغييرات جذرية في خلال تاريخها "الطويل". ولكن ليس من المؤكد أنه في المستقبل المنظور ستصل المجتمعات الإسلامية الى ما يصوّره لنا اولئك المستقبليون.

إن من الحكمة والواقعية السياسية والتاريخية أن نتعامل مع المعلوم لا مع المجهول.

وتجدر الإشارة الى أن الكثيرين من أبناء هذا الشرق مصابون بالذهنية السحرية، تلك الذهنية التي تتصور شيئا أو أملا، ثم تدفع صاحبها الى التصرف وكأن هذا التصور أصبح حقيقة واقعة.

فالمعلوم يقول لنا إننا "أخل ذمّة" بنظر المسلمين، وإننا دونهم قيمة في المواطنية: حقوقا وواجبات.

أما المجهول فيتفنّن في التخيّل وفي استحضار الحلول الذهنية فحسب.

مبدأنا أن نعالج، اليوم، قضايانا من المعطيات التي بين أيدينا، وأن نترك للأجيال المقبلة أن تعالج قضاياها انطلاقا من معطياتها التي تكون بين أيديها. فلا تجميد للتاريخ ولا احتكار له.

ثمّ...

إذا كان المسلمون في مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر... وفي الربع الأخير من القرن العشرين، يتصرّفون تجاه المسيحيين كما يتصرفون، ويعلنون الإسلام دينا للدولة ولرئيس الدولة، ومصدرا رئيسيا للتشريع، فهل يكون قريبا ذلك اليوم الذي يميّز فيه الإسلام، بصراحة وعلى نحو عملي، بين الدين والسياسة؟

وإذا كان مسلمو لبنان، وهم أرقى مسلمي العالم العربي، قد اضطهدوا مواطنيهم المسيحيين على النحو الذي ذكرناه، وحالفوا المسلم "الغريب" ضد مواطنهم المسيحي، وقد فعلوا ذلك ونحن في الربع الأخير من القرن العشرين، فهل يكون قريبا ذلك اليوم الذي يعتبرون فيه "مواطنيّتهم" للمسيحي في لبنان قبل "أخوّتهم" للمسلم غير اللبناني، خصوصا وأنهم يعتقدون أنهم سيصبحون أكثرية عددية في لبنان في المستقبل غير البعيد؟ فمنذ الثلاثينات، وعلى أساس هذا الاعتقاد، يقول محمد جميل بيهم: "إن أحوال المسلمين الشخصية وإقبالهم على الزواج تكفلان لهم عمّا قريب أكثرية عددية. وكلما مرّ الزمن ازدادوا كثرة ولا سيما لأنهم أقل من سواهم ميلا للهجرة"[1].

إن القضية كلها تكمن في إيجاد الحلّ الذي يرتاح اليه ضمير المسلم وضمير المسيحي. والمطلوب من العقل في لبنان – وفي العالم الإسلامي – استنباط "صيغة" دستورية توفّق على نحو طبيعي بين تطلعين محقّين:

تطلع المسلمين الى أن يكون لهم حاكم مسلم ونظام مستمد من الشريعة الإسلامية.

وتطلع المسيحيين (وجميع المنادين بالعلمانية) الى أن يسود مجتمعهم قانون علماني.

ولا يكون ذلك إلا إذا قَبِلَ كل فريق بحقيقة الواقع، وفهم تطلع الفريق الآخر، وتصرّف بوحي هذا الفهم.

على كل حال،

وأيا كانت احتمالات المستقبل،

فإن المسيحيين اللبنانيين اختاروا موقفهم النهائي (ولعلّ سائر المسيحيين في العالم الإسلامي يقرّون الاختيار نفسه)، ولن يعودوا عنه مهما تهددتهم أخطار: لن يسمحوا بتطبيق نظام "أهل ذمّة" عليهم.

علما،

بأن المسيحيين اللبنانيين هم أصيلون في هذا المشرق الخلاق،

وبأنهم يرفضون رفضا باتا، غير قابل لأي بحث ونقاش، التنازل عن حقهم في التلاقي والتعامل المحب، المخلص، المثري مع أهل الشرق وسكانه، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، عربا كانوا أم غير عرب، وعن حقهم في الخدمة وفي الشهادة لإيمانهم المرتكز على المحبة،

وبأنهم يصرّون على أن يكونوا فاعلين وفعّالين وروّادا في مساعي التنمية والتحرر الانساني وفي الوصول الى أقصى درجات الاحترام للانسان – الشخص ولكرامته وحريته.

---

[1] جريدة "بيروت" البيروتية، 20 آب 1936

لذلك،

فلـيعلم جميـع النــاس مـن أقاصــي الأرض الــى أقاصـيها، أن المسـيحيين لـن يهاجروا

ولن يركعوا

ولن يكونوا "أهل ذمّة"

وليكن ما يكون.

ومن يعشْ يـرَ.